النظريات الدلالية وفهم النص

إنّ الهدف العميق لهذه المحاضرة، يكمن في الكشف عن الدور المهم للنظريات الدلالية في فهم النص .

1. التغيّر الدلالي والتطوّر الدلالي:

إذا سلمنا بمنهج الدراسة الدلالية التطوّري الوصفي، فإنّ تتبّع التغيّر الدلالي (Semantic change) الذي يُصيب الكلمات الخاصة بلغة معيّنة من فترة إلى أخرى، وما يُسبّبه تطوّر دلالي (Semantic evolution) يُسهم في تبين نظام لغوي جديد، يُعدّ من المبادئ الأساسية التي ينبغي على المحلّل الدلالي أن يأخذها بعين الاعتبار، لأنّ محاولة الوعي بالبنية الدلالية (structure semantic) يبدأ من فهم الأسباب التي أبدلت في دلالات الكلمات، سواء لحاجة المجتمع إلى مجالات معرفية جديدة، أو تغيّر رؤيته وميولاته الفكرية بشكل عام، فعند المقارنة بين نظامين ينتميان إلى نفس اللغة، سنجد أنّ بعض الكلمات قد حدث في دلالتها تغيّر، نظرا لطبيعة اللغة الديناميكية التي تحيي وتميت في كلّ مرة، توسّع الدلالة أو تضيّقها، تُبدّل مواقعها بين المركزية والهامشية، تحطّ وتُعلي لأسباب عديدة.¹ ومن ثمّ، يعدّ المنهج التطوّري وجها موازيا للمنهج الوصفي لا غنى عنه، فهو المعين على معاينة حياة اللغة العامة والخاصة، بحيث يحلّل الفيلم التاريخي المعروض أمامنا وما فيه من التطوّرات اللغوية والاجتماعية والثقافية والفكرية التي ساهمت في تشكيل بنية دلالية في نقطة محدّدة من السلسلة التاريخية، لكن علينا الانتباه أكثر إلى قضية حاسمة؛ يُلفت الباحث الياباني "توشيهيكو إيزوتسو" الأنظار إليها في قوله: "علم الدلالة التاريخي الحقيقي كما نفهمه الآن، يبدأ فحسب عندنا ندرس الكلمات في إطار الأنظمة السكونية التي تنتمي إليها كلّها، أي عندما، بتعبير آخر، نُقارن "سطحين" أو أكثر مع بعضهما مما يُمثّل اللغة نفسها - لنقل العربية- في مرحلتين مختلفتين من تاريخها، تفصل بينهما فسحة من الزمن"². تعني عبارة "الأنظمة السكونية" في هذا القول: الفترات المحدّدة المختارة للدراسة من منظور وصفي، مما يُتيح فرصة المقارنة بينها، على سبيل المثال: فهم الدلالات القرآنية للكلمات الهامة المعبّرة عن العقيدة الإسلامية، يُعيد المتأمل إلى الأشعار الجاهلية، وكيف استعملت تلك الكلمات في معجمهم وتصوّرهم.

مثلا فعل "عبد القاهر الجرجاني" فقد استشهد بالأشعار الجاهلية من أجل إثبات إعجاز القرآن الكريم، وما أضافه لفصاحة العرب وبيانهم من دلالات وسّعت المعجم العربي: "وإذا كان ذلك كذلك،

1 ينظر: أحمد مختار عمر، علم الدلالة، ص243، 250.

2 توشيهيكو إيزوتسو، الله والإنسان في القرآن، علم دلالة الرؤية القرآنية للعالم، ص73، 74.

فما جوابنا لخصم يقول لنا: إذا كانت هذه الأمور وهذه الوجوه من التعلّق التي هي محصول النّظم، موجودة على حقائقها وعلى الصّحة وكما ينبغي من منثور كلام العرب ومنظومة، ورأيانهم قد استعملوها وتصرفوا فيها وكملوا بمعرفتها... فما هذا الذي تجدد بالقرآن من عظيم المزيّة، وباهر الفضل، والعجيب من الرّصف، حتى أعجز الخلق قاطبة...؟ أيلزمنا أن نجيب هذا الخصم عن سؤاله، ونردّه عن ضلاله، وأن نطبّب لدائه ونُزيل الفساد عن رائه؟ فإن كان ذلك يلزمنا، فينبغي لكلّ ذي دين وعقل أن ينظر في الكتاب الذي وضعناه³. يقول الباحث "عبد الغني بارة" بهذا الشأن: "لعلّ هذا ما جعل عبد القاهر الجرجاني (ت 471 هـ) يصل إلى أنّ حقيقة الخطاب القرآني، أي وجوه الإعجاز فيه، لا يُمكن تحديدها إلّا من خلال دراسة الشّعر، باعتباره مدخلا ضروريّاً، والبحث عن القوانين العامّة التي تشكّله، وكذا كيميّة إنتاجه للدّلالة"⁴.

كما انتهج الباحث "عودة خليل أبو عودة" نفس المبادئ أثناء تتبّع التطوّر الدّلالي بين الشّعر الجاهلي ولغة القرآن، في دراسته الدلالية المقارنة التي انتهجها لذلك، ميّنا أنّ بعض الكلمات قد ثبتت دلالتها في القرآن كما كانت عليه في الشّعر الجاهلي كالجن والملائكة، وهناك كلمات غيرّها القرآن منها ما كانت عامة الدّلالة قام بتخصيصها كالصّلاة والحجّ والصّيام، ومنها ما كانت خاصّة في دلالتها فأعطاهم دلالة عامّة مثل: الكفر، الفسق، النّفاق وهناك كلمات تطوّرت عن طريق المجاز إلى الحقيقة مثل: التّسبيح، المغفرة، كما أعطى المفاهيم الجاهليّة دلالات جديدة لم تكن معروفة لها مثل: إبليس، الغسلين، الحدّ. كما خلق كلمات جديدة كالجزاء، والعقاب⁵.

لذلك، يتبلور النّظام اللّغوي داخل بيئة اجتماعيّة تحكمها تركيبة معرفيّة وثقافيّة خاصّة، فاللّغة تنمو وتتطوّر داخل هذا الإطار وقد تموت كما الكائن الحي، وفي هذه الرّحلة تحمل السّمات الثّقافية والفكرية لتلك الأُمَّة لتعبّر بطريقتها الخاصّة عن تصوّرها للعالم، "فالثّقافة ليست هي المجال الأكثر عمقا بالنّسبة لمجتمع ما فحسب، بل إنّها تمثل أيضا المجال الأكثر ارتفاعا وفعالية، ومن ثمّ تعدّ الثّقافة سمة أساسية لصيرورات المجتمع المعقدة والمتداخلة، ونحن نستنبط بواسطتها الأوامر والضّوابط والنّواهي والمعاني من العبارات اللّغوية المتداولة على لسان الجماعة"⁶، والفرد بطبيعته يتأثر بالظواهر اللّغوية لكنّه في تواصله لا ينقل النظام اللّغوي الاجتماعي كاملا، إنّما يوظّف مقولات فرديّة

3 عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تح: محمود محمد شاكر، دار المدني، مصر، ط3، 1993، ص8، 9 (المقدمة).

4 عبد الغني بارة، الهرمونيقيكا والفلسفة: نحو مشروع عقل تأويلي، منشورات الاختلاف، بيروت، ط1، 2008، ص419.

5 ينظر: التطور الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن الكريم، (دراسة دلالية مقارنة)، مكتبة المنار، بيروت، ط1، 1985، ص540.

6 عبد الفتاح أحمد يوسف، لسانيات الخطاب وأنساق الثّقافة، فلسفة المعنى بين نظام الخطاب وشروط الثّقافة، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2010، ص47.

ويعبر بأساليب خاصة وفق ما يقتضيه سياق الحال إذ هناك خلفيات ومواقف تحيط بالحدث الكلامي حسب مقاصد المتلفظ. على هذا ينتج المعنى الدلالي عن اللغة لا عن الكلام.

2. التحديد السياقي لمعنى النص:

تعدّ "النظرية السياقية" (contextual theory)، أكثر التصاقا بعلم الدلالة وأدق منهجية وضبطا للأسس العلميّة الموضوعيّة التي تساعد على تحديد المعنى الدلالي (Semantic meaning). هذه النظرية التي تبلورت على يد اللغوي البريطاني "فيرث" firth، تعيد الاعتبار للشق الثاني الذي أهمله البنيويون في الدراسات اللغويّة؛ أي الجانب الاجتماعي، وهنا يلزمنا الحذر في تحديد مفهوم المعنى الدلالي الذي لا يخرج عن نطاق الوصفية.

وما فعله أوجدن وريتشارلز (Ogden. Richards) في النظرية الإشارية (theory of reference)، يعدّ إجراء حاسما أيضا في توسيع مباحث علم الدلالة، بإضافة المرجع الخارجي (Reference)⁷؛ فبالنسبة لهذه النظرية يتحدّد المعنى وفق ما يعكسه الواقع، لأنّ الكلمات تشير دائما إلى المحيط الذي وضعها، أي أنّها تحمل دلالة وضعية (supposition) أيضا⁸، هذا الأمر لا يعني تفكك الوحدة اللغوية بل هو الانتظام⁹. لذلك يركّز "جان بيرو" (Jean peraud) على أنّ خصائص اللغة ترتبط بعاملين أساسيين: الأول كلّ لغة نظام من الأدلة، والثاني: كلّ لغة تتحقّق في إطار اجتماعي يحدّد وظيفتها وتطورها¹⁰.

هذا من شأنه يفتح لنا مجال الحديث عن المعنى المعجمي والمعنى السياقي، حيث نجد أنّ الكلمات في المعاجم التقليدية تكون مرتبة تحت بعضها البعض من دون وجود علاقات دلالية فيما بينها، فقط تحمل معنى عرفيا وفي الغالب يكون متعدّدا، بينما في الوقت الذي توضع فيه الكلمة داخل سياقها، تبدأ عملية حذف المعاني الهامشية من أجل تخصيص المعنى الواحد لها. وفي هذا المقام يفرّق الباحث "علي زوين" بين المصطلحين بقوله: "للسياق أهميّة كبيرة في تحديد المعنى وتوجيهه، ومعظم الكلمات من حيث المفهوم المعجمي دالة على أكثر من معنى واحد، فالذي يحدّد هذه المعاني ويفصلها هو السياق في مورد النص، لذلك نلاحظ أنّ اللغويين يصفون المعنى المعجمي للكلمة بأنّه متعدّد ويحتمل

7 c.k Ogden and I.A.Richards, the meaning of meaning, united states of America,1989, p13.

8 تودوروف وآخرون، المرجع والدلالة في الفكر اللساني الحديث، تر: عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، طبعة مزيدة ومنقحة، 2000، ص27.

9 المرجع نفسه، ص110.

10 اللسانيات، تر: الخواص مسعودي، مفتاح بن عروس، دار الآفاق، الجزائر، 2001، ص114.

أكثر من معنى واحد، في حين يصفون المعنى السياقي لها بأنه واحد لا يحتمل غير معنى واحد"¹¹، وهنا توضيح بارز لأهمية السياق في قدرته على تحديد المعنى؛ فهما تعددت معاني الكلمة يفرض السياق معنى واحدا ووظيفة واحدة تؤديها.

-المعنى المعجمي (Lexical meaning): البحث عن معنى الكلمة مفردة بعيدة عن السياق. في هذه الحالة تحمل الكلمة معاني متعددة.

-المعنى السياقي (Contextual meaning): توضع الكلمة في سياق لغوي اجتماعي قصد تحديد الدلالة، من خلال ربطها مع قريناتها من الكلمات الأخرى من جهة، وإنزالها إلى البيئة التي أنتجتها من جهة ثانية، من خلاله نصل إلى المعنى الدلالي حينما نبحث في العلاقات الدلالية للكلمة.

3. نظرية الحقول الدلالية:

يُعرّف الحقل الدلالي (Semantic field) بأنه: " مجموعة من الكلمات ترتبط دلالاتها وتوضع عادة تحت لفظ عام يجمعها، مثال ذلك كلمات الألوان في اللغة العربية فهي تقع عادة تحت المصطلح العام (لون) وتضم ألفاظا مثل: أحمر، أزرق، أصفر، أخضر... إلخ وعرفه Umann بقوله: <<هو قطاع متكامل من المادة اللغوية يعبر عن مجال معين من الخبرة.>>¹² لذا، نجد أنّ فكرة الحقل الدلالي قد تأسست على فكرة المفاهيم العامة التي تُؤلف بين مفردات لغة معينة، ولعلّ ركيزته قائمة على الارتباط الدلالي بين الكلمات في لغة معينة التي يوحدتها معنى أساسي.

حيث قدّمت الدراسة الدلالية، رؤية جديدة لمفهوم الحقل الدلالي قائمة على فكرة الربط بين الكلمات وتوزيعها داخل مجال مفهومي لتعبّر عن موضوع معين؛ فلم تعد الكلمات مفردة أو معزولة بحيث لا تربط بينها أية رابطة، فقط تحمل معناها المعجمي، بل تدخل في علاقات دلالية مع بعضها مشكّلة مجموعة متّحدة من خلالها يتحدّد معناها السياقي الدلالي، فهذه الكلمات "لا تكون موجودة هكذا ببساطة من دون أيّ نظام؛ على العكس من ذلك تؤلّف كلّاً معقّدا جدّا ومنظّما تنظيما عاليا."¹³

إذا ما حاولنا الإحاطة بتاريخ هذه النّظرية (Theory of semantic fields) نجد الباحث "أحمد مختار عمر" يكشف لنا بتتبّع تاريخي، أوائل من اهتموا بدراسة الحقول الدلالية، حيث اعتبر أنّ الفكرة لم تتبلور إلّا في العشرينيات والثلاثينيات من هذا القرن، وإذا كان التّركيبيون الأمريكيّون المتأثرون

11 منهج البحث اللغوي بين التراث وعلم اللغة الحديث، دار الشؤون الثقافية العامة، ط1986، ص185.

12 أحمد مختار عمر، علم الدلالة، ص79.

8. توشيهيكو إيزوتسو، المفهومات الأخلاقية_الدينية في القرآن، تر: عيسى علي العاكوب، دار الملتقى، سوريا، ط1، 2008، ص57.

بـ"بلومفيلد" قد أهملوا دراسة المعجم بحجة أنّ التّصنيف فيه نوع من التّسبب، والحال ذاتها مع التّوليديين التّحوليين المبكّرين الذين رأوا أنّ المعجم جزء من النّحو، فإنّ العلماء السّوسريين والألمان قد اهتموا بهذا المجال وبخاصة Ispen(1924)، Jolles(1934)، Prozig(1934)، Trier(1934) الذي قدّم أهم الدّراسات المتعلّقة بالألفاظ الفكرية في اللّغة الألمانية الوسيطة، كما طبّق علماء الأنثروبولوجيا الأمريكيّون هذه الفكرة على عدّة مجالات منها القرابة والنبات والألوان والحيوان، كما تطوّر السيمانتيك التّركيبي في فرنسا حيث ركّز Matore(1953) وأتباعه على حقول تتعرّض علاماتها اللّغوية للتّغيّر أو الامتداد السّريع، وتعكس هذه الحقول -حسب الباحث- تطوّرًا سياسيًا أو اقتصاديًا أو اجتماعيًا هامًا.¹⁴

لهذا، يرى الباحث "محمد علي الخولي" أنّه لابدّ أثناء العمل في الحقول الدلاليّة وتوزيع الكلمات عليها اتّباع الخطوات التالية:

1. يجب تحديد الحقول الدلاليّة الرّئيسيّة كخطوة أولى.
2. بعد ذلك، يمكن تفرّيع الحقول الدلاليّة الرّئيسيّة إلى حقول دلاليّة فرعيّة.
3. الآن، يُصبح لدينا عدد محدود ومحصور من الحقول الدلاليّة الفرعيّة.
4. بعد ذلك، نبدأ في توزيع الكلمات على الحقول الفرعيّة (وليس على الحقول الرّئيسيّة).
5. كل كلمة معجمية لا بد من توزيعها على حقل فرعي، إذا تبيّن أنّ كلمة لا يُناسبها أيّ حقل فهذا دليل على قصور في عدد الحقول وأنواعها، الأمر الذي يستدعي إعادة التّظرفي تفرّيع الحقول.
6. من المهم ملاحظة أنّ الكلمة الواحدة لا تنتمي إلا لحقل فرعي واحد، فلا يجوز أن تظهر الكلمة الواحدة في حقلين.¹⁵

14 ينظر: أحمد مختار عمر، علم الدلالة، ص ص 82، 83.

15 المرجع نفسه، ص ص 178، 179.